تجلّيات الاستلزام الحواري في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ) مقاربة تداولية

هدى سلام عبد الحسين

أم.د. منذر زيارة قاسم

كلية التربية القرنة / جامعة البصرة

Manifestations of the discursive denotations in the message of forgiveness By Abu Al-Ala Al-Maari (d. 449 AH): pragmatic comparison

Huda Salam Abdel-Hussein

Prof. Dr. Munther Ziyara Qasim

ملخص البحث

تعدّ دراسة الاستلزام الحواري في رسالة الغفران قراءة لخطاب المعري الذي بُني على لغةٍ تداوليةٍ عمد من خلالها المعري إلى فن إضمار المقاصد، فدفع متلقيه إلى مشاركته لعبة الإضمار في ضوء تقصي المعاني المستلزمة التي تحملها كلماته بين طيات مقاصدها، وقد تسهّم هذه الآلية في تبليغ المقاصد بخلق قناة تواصلٍ عميقةٍ بين المعري من جهةٍ ومتلقيه من جهةٍ أخرى، فابتعدت برسالته عن أن تكون منجزاً لغوياً فحسب، وجعلت منها حدثاً اجتماعياً وفكرياً يحمل فلسفة المعري إلى كل متلقٍ لنصه.

Abstract

The research looks into the discursive functions of personal denotations as an analytical tool that shows the set of possibilities in the language of Abu Al-Ala Al-»The Maarri›s Message of Forgiveness» as a model that includes pragmatic prose for its semantic purposes whose content can›t be seen without the verbal context. The research doesn›t merely look at the obvious signs; it also looks at the signs that have the strongest presence. These are the signs that are rooted in the internal structure of discourse, in a modern pragmatic view of an eloquent Arab influence that embodied a phase of ancient Arab thought.

- نظرية الاستلزام الحواري:

يعدّ الحوار عماد العملية التواصلية من حيث إنه التجسيد الكلامي الفعلي فيها، فالعملية التواصلية لابدّ لها من طرفي تواصل (المتكلم والمتلقي) يقومان بالعملية التخاطبية بشكلٍ متبادلٍ لإيصال المقاصد من خلال الحوار، «فالهدف الأساس من استعمال الكلام هو إيصال رسالةٍ ما إلى شخصٍ معينٍ أو مجموعةٍ من الأشخاص، ولذلك فإن استعمال الكلام يستوجب وجود عنصرين لا يكون الحديث إلا بهما وهما المتكلم الذي يؤلف المرسلة تبعاً لأهوائه ورغباته، والمخاطب الذي يقوم بفك رموز هذه المرسلة لفهمها»[١]، ولذلك حظيّ الحوار باهتمام النظرية التداولية، فهو الميدان الرحب لها[٢]، كونها تهتم بدراسة اللغة في سياقها، وليس في بنيتها اللغوية فقط.

وينبغي للحوار أن ينضبط بقواعد تواصليةٍ تحدد وجوه فائدته التواصلية أو الإخبارية تسمى (قواعد التبليغ) أو « الاستلزامات المحادثية «[٣]، إضافةً إلى لزوم انضباطه بقواعد تحدد وجوه استقامته الأخلاقية أو التعاملية تسمى (قواعد التهذيب)، وأهم هذه المبادئ التي تقررت عند المشتغلين بالنظر في الكلام الإنساني: (مبدأ التعاون)، و(مبدأ التأدب)، و(مبدأ التواجه)، و(مبدأ التأدب الأقصى)، و(مبدأ التصديق)[٤].

وقد كان اهتمام غرايس (*Grice*) بدراسة الحوار في محاضراته التي ألقاها في جامعة هارفارد عام ١٩٦٧، وبحثيه اللذين نشرهما عام ١٩٧٨ وعام ١٩٨١ باعثاً إلى نشأة البحث في الاستلزام الحواري، ومن ثم تطور هذا العمل ليصبح من أهم النظريات التداولية وأكثرها تأثيراً في تطورها[٥]، إذ صب غرايس اهتمامه في أعماله المبكرة على مسار الحوار في

العملية التواصلية، والكيفية التي ينقل بها المتخاطبَين مقاصدهما الظاهرة والخفية، إذ قال غرايس «إن الاستلزام لا يولده ما قيل بل كيفية قول ما قيل، أي طريقة التعبير على نحو ما.»[٦]

-مفهوم الاستلزام الحواري:

بعد أن أوجد غرايس مفهوم الاستلزام الحواري بات يعد هذا المفهوم من أهم جوانب الدراسة التداولية، فنظرية الاستلزام الحواري كما يراها هشام الخليفة جاءت لتسد ثغرةً في مجال علم الدلالة والفعليات إذ زوّدت اللغويين واللسانيين بتفسيرٍ واضحٍ لسؤالهم عن الكيفية التي يتسنى للمتكلم من خلالها أن يعني أكثر ممّا يقول فعلياً؛ أي أكثر ممّا يعبر عنه حرفياً[٧].

وهذه النظرية لونٌ من ألوان الإضمار الحواري؛ إذ تدرس الجمل وفقاً للتداول الفعلي؛ أي تبعاً لظروف السياق المحيطة بها[٨]، فقد لاحظ غرايس أن الجمل في اللغات الطبيعية تدلّ على معنىً غير محتواها القضوي، مثال ذلك الحوار بين أستاذين يقول الأول منهما: هل الطالب زيدٌ مستعدٌ لدخول قسم اللغة العربية في كلية الآداب؟ فيجيبه الأستاذ الآخر: إن زيداً عازفٌ ممتازٌ، ومن خلال تأمل الحمولة الدلالية لإجابة الأستاذ الثاني نجد أنها تحمل دلالتين، الأولى دلالةٌ حرفيةٌ؛ أي معنى المحتوى القضوي وهو أن زيداً عازفٌ ممتازٌ، والثانية دلالةٌ مستلزمةٌ؛ أي معنىً غير المحتوى القضوي، وهو أن زيداً غير مستعدٍ لدخول قسم اللغة العربية[٩]، وهذه الدلالة المستلزمة ترتبط بالسياق التداولي الذي تتمّ فيه العملية الحوارية التواصلية، وهي أكثر قصداً من قبل المتكلم.

وقد تباينت التسمية الاصطلاحية المستخدمة عند الباحثين للدلالة على مفهوم الاستلزام

الحواري أو الاستلزامات المحادثية كما يسميها غرايس[١٠]؛ وهذا التباين في المصطلح يعود في الحقيقة بسبب اختلاف الترجمة، وزوايا نظر الباحثين لها، ولذا نرى جورج يول أطلق عليه مصطلح التضمين التحادثي[١١]، وهشام الخليفة استخدم مصطلح «التلويح الحواري»[١٢]، أما د.عادل فاخوري فقد استخدم مصطلح الاقتضاء التخاطبي[١٣]، وقد فضّلت الباحثة اعتماد مصطلح الاستلزام الحواري لسببين؛ أولهما: إنه المصطلح الأكثر شيوعاً في الأبحاث التداولية للدلالة على المفهوم الذي قدمه غرايس في محاضرته، وثانيهما: إن لفظة (الاستلزام) تحيل في دلالتها اللغوية إلى ملازمة أمرٍ لأمرٍ آخر واستدعائه، فهي لذلك تدلّ بشكلٍ واضحٍ على ملازمة المعنى الضمني الذي يقصده المتكلم لمعنى الكلام اللغوي الصريح، واستحضاره تبعاً لسياقات العملية التواصلية ومقاماتها، فقد عرّفه غرايس هو ما يتضمنه الحوار من معان قارة لا يكشف عنها الكلام الملفوظ.... وهو استدعاء العقل لمجموع التوقعات التي يسبرها المتلقي من مقول النص بالاعتقاد على قواعد تخاطبية مخصوصة وليس بالرجوع إلى المعاني العرفية أو الاستنتاجات المنطقية». [١٤]

وتوصلنا إلى اقتراح تعريفٍ للاستلزام الحواري يقول:هو معنىً مضمرٌ في الكلام الصريح والمباشر يدرك من خلال عملية استدلالٍ عقليٍّ يربط فيها السامع بين سياق الحال والمعنى المخفي غير المصرح به الذي يريد المتكلم إبلاغه.

فالاستلزام الحواري يحمل حالة عدم مطابقة معنى الكلام لدلالة القول المنطقية أو الحرفية[١٥]، وقد ركز غرايس جلّ اهتمامه على تسويغ حالة عدم المطابقة بين قصد المتكلم ودلالة قوله الحرفية، فوجد أن المتخاطبين

المساهمين في محادثةٍ مشتركةٍ يحترمون مبدأ التعاون إذ يتوقع كلٌّ منهم مساهمة الآخر بكيفيةٍ عقلانيةٍ ومتعاونةٍ لتيسير تأويل الأقوال في المحادثة[١٦]، و»يقول غرايس: إننا لا نطيع قواعد المحاورة دائماً على المستوى السطحي الظاهر، وإنما، في أغلب الوقت، يفترض المستمعون بأننا نلتزم بالقواعد على مستوىً من المستويات، في الأقل. فقد نخالف أو نستغل القواعد عن قصدٍ معتمدين على افتراض المستمع بأننا لابد أن نطيعها على مستوىً آخر»[١٧]، فالتزام المتكلمين بمبدأ التعاون في الاستدلال على المعاني المقصودة يتيح للمتكلم اختراق قواعد التخاطب مستغلاً هذا الخرق لإيصال ما يعنيه بشكلٍ غير مباشرٍ، وهذا هو الاستلزام الحواري.

وقد صاغ غرايس مفهوم مبدأ التعاون على النحو الآتي: «ليكن إسهامك في الحوار بالقدر الذي يتطلبه سياق الحوار، وبما يتوافق مع الغرض المتعارف عليه، أو الاتجاه الذي يجري فيه ذلك الحوار»[١٨]، أو بصياغةٍ أخرى: «اجعل إسهامك الحواري، حين تدلي به، مناسباً للاتجاه والغاية المتوخاة من المحاورة التي تشارك فيها»[١٩].

وفي شرح المبدأ التعاوني يقدم جورج يول مثالاً، ويدعونا إلى التأمل فيه، وهو السيناريو الآتي: هنالك امرأةٌ جالسةٌ على مقعدٍ في حديقةٍ عامةٍ وأمامها كلبٌ ضخمٌ مستلقٍ على الأرض، فجاء رجلٌ وجلس على المقعد إلى جانب المرأة، ثم قال:

-أيعض كلبك؟

-أجابته: كلا.

فقام الرجل بمحاولة مداعبة الكلب، ولكن الكلب عض يد الرجل، فقال:

-آخ! أنت! قلت أن كلبك لا يعض.

-فأجابته المرأة: هذا صحيح، ولكن

هذا ليس كلبي.

ويشتمل مبدأ التعاون على أربع قواعد فرعيةٍ تمثل أربعة مجالاتٍ رئيسةً يفترض على المتحاورين احترامها واستغلالها، وهي[٢٠]:

قاعدة الصلة أو المناسبة

(Maxim of Relation):

تفرض هذه القاعدة أن يكون حديث المتكلم داخل الموضوع؛ أي ليكن كلامك مناسباً ذا صلةٍ بموضوع الحديث.

قاعدة النوعية

(Maxim of Quality):

التي تفرض نزاهة القائل الذي ينبغي ألا يكذب، وأن يمتلك الحجج المناسبة لإثبات كلامه؛ أي:

١- لا تقل ما لا تعتقد أنه صادقٌ.

٢- لا تقل ما ليس عندك دليلٌ كافٍ على صدقه.

قاعدة الكمية

(Maxim of Quantity):

التي تفرض أن تتضمّن مساهمة المتكلم حداً من المعلومات يعادل ما هو ضروريٌ في المقام، فلا يزيد عليه أي:

١- اجعل إسهامك في المحاورة مفيداً بالمعلومات بالقدر المطلوب.

٢- لا تجعل إسهامك بالمعلومات أكثر ممّا هو مطلوبٌ، وتسمى أيضا بقاعدة الشفافية والوضوح، لتكن واضحاً.[٢١]

قاعدة الأسلوب أو الكيف

(Maxim of Manner):

وتعني هذه القاعدة أن نعبر بوضوحٍ وبلا لبسٍ قدر الإمكان، وأن نقدم المعلومات وفقاً لترتيبٍ مفهومٍ أي:

١- تجنب غموض العبارة.

٢- تجنب اللبس.

٣- تكلم بإيجاز.

٤- ليكن كلامك مرتباً بالتسلسل.

ولفت د. محمود أحمد نحلة

إلى أن انتهاك هذه المبادئ يمثل مطلباً في ذاته من حيث إن نظرية الاستلزام الحواري قائمةٌ على هذا الانتهاك، مع لفت الانتباه إلى أمرٍ شديد الأهمية وهو الإخلاص إلى مبدأ التعاون[٢٢]، فعند حدوث إي اختراقٍ لهذه المبادئ من قبل المتكلم فإن السامع سيلجأ تحقيقاً لمبدأ التعاون إلى البحث عن المعاني الخفية المضمرة التي تلازم المعنى الحرفي للقول، ويقصدها المتكلم، أي إنه سيلجأ إلى الاستلزام الحواري ليحقق مبدأ التعاون.

ويضرب د.نحلة مثالاً يوضح حالة الخرق المتعمّد لأحدى المبادئ الثانوية لمبدأ التعاون، ففي حوارٍ يدور بين تلميذٍ وأستاذه، يقول التلميذ:

– طهران في تركيا، أليس هذا صحيحاً يا أستاذ؟

فيجيبه الأستاذ:

–طبعاً، ولندن في أمريكا!

نلاحظ انتهاك الأستاذ لقاعدة النوعية التي تقتضي ألا يقول إلا ما يعتقد أنه صادقٌ، ويملك دليلاً كافٍ على صدقه، وقد انتهك الأستاذ هذه القاعدة عمداً ليظهر لتلميذه أن إجابته غير صحيحة، وليؤنبه على جهله بهذه المعلومة البسيطة، والتلميذ قادرٌ على الوصول إلى مراد أستاذه ؛ لأنه يعلم أن لندن ليست في أمريكا، فذلك يستلزم أن الأستاذ يقصد بقوله شيئاً مختلفاً عما تعنيه الدلالة الحرفية لكلماته، وهو أن قول التلميذ غير صحيح[٢٣].

فانتهاك مبادئ الحوار الثانوية هو عماد الاستعمال في التعبيرات الحقيقية العادية كما في التعبيرات المجازية والأدبية أيضاً، ونظرية الاستلزام الحواري هي سبيل المتلقي إلى فهم المعنى المقصود من مثل هذه الاختراقات الكلامية التي قد يقوم بها المتكلم عمداً، فالاستلزام الحواري هو الاستدلال الذي يجب أن نتوصل إليه لنحافظ على مبدأ التعاون،

ولولاه لانتفت فرضية التعاون بين المتحاورين[٢٤]، فانتقال المتلقي من الدلالة الحرفية للقول إلى المعنى الاستلزامي الذي يقصده المتكلم هو ما يحقق إتمام العملية التواصلية بينهما، وإذا انتفت قدرة المتلقي على إجراء هذا الانتقال قُطعت حلقات العميلة التواصلية، وفُقد المعنى.

ويرى هشام الخليفة أن موقف المتكلمين من القواعد الحوارية متفاوتٌ، فمنهم من يتقيد بها، ويطيعها، ومنهم من لا يتقيد بها، ولا يطيعها، ويجد أن عدم الإطاعة يكون عادةً على أحد الأشكال الآتية:

مخالفة القواعد.

خرق القواعد بسبب عدم القدرة على إطاعتها.

رفض إطاعة القواعد علناً.

تعليق القواعد.

الاستخفاف بالقواعد واستغلالها.

فأما الحالات الأربعة الأولى فلا يوليها أهميةً، بل يجد أن الأهمية تكمن في حالة الاستخفاف بالقواعد واستغلالها؛ لأنها المسؤولة عن توليد الاستلزام الحواري المتعمد[٢٥].

فالتزام المتحاورين بقواعد الحوار بشكلٍ دائمٍ سيجعل كلامهم صريحاً ومباشراً دائماً، وهذا لا يناسب مقامات التداول الفعلي في كل الأحيان، فالمتكلمون يسعون إلى استثمار طاقة مبدأ التعاون الذي يقود العملية التواصلية، ويعمدون إلى إيصال مقاصدهم من خلال خرق القواعد، ولعل هذا الخرق يضفي حيويةً على الحوار، ويبعده عن الرتابة والتنميط.

-تجليات الاستلزام الحواري في رسالة الغفران:

تظهر الاستلزامات الحوارية في الخطاب عندما لا يحقق الكلام الصريح قواعد مبدأ التعاون، فلا تعطي المعاني الصريحة الفائدة المرجوة

منها، ممّا يستدعي من المتلقي بسبب التزامه بمبدأ التعاون البحث عن المعاني المستلزمة في المعاني الصريحة ضمن سياق التواصل لفهم المقاصد المضمرة التي يتضمّنها الخطاب.

واستفاد المعري في خطابه من الاستلزام الحواري في (رسالة الغفران) بوصفه آليةً تتيح للمتكلم تحقيق مقاصده بشكلٍ مضمرٍ، فعمد إلى خرق قواعد الحوار ليدع للمتلقي مهمة لحظ السياق بطريقة اللزوم ليصل إلى المعاني المقصودة حقيقةً.

وسيعمل البحث على تطبيق جوانب نظرية الاستلزام الحواري في قراءةٍ تداوليةٍ لنص (رسالة الغفران) للكشف عن المعاني المستلزمة فيه، وكيفية حضورها.

نلمح الاستلزام الحواري في قول المعري: «قد علم الجبر الذي نسب إليه (جبرئيل) وهو في كل الخيرات سبيلٌ... أن في طِمريّ لِحضباً وكّل بأذاتي، لو نطق لذكر شذاتي*، ما هو بساكنٍ في الشقاب* ولا بمتشرفٍ على النقاب، ما ظهر في شتاءٍ ولا صيفٍ، ولا مرّ بجبلٍ ولا خيفٍ، يضمر من محبة مولاي الشيخ الجليل -ثبّت الله أركان العلم بحياته- ما لا تضمره للولد أم[٢٦]

إذ نتقصى في هذا القول تمثلاً للاستلزام الحواري من حيث إن الدلالة الحرفية له تتنافى مع السياق الذي ألفت فيه الرسالة، فالمعري يرد برسالته (الغفران) على رسالة ابن القارح، والحال بينهما يعكس مشاعر ودٍّ واحترامٍ، فجاء تعبيره بأن (حضباً) -وهو الذكر الضخم من الحية- يسكن جسده الهزيل وثوبه البالي، ويضمر مشاعر المحبّة لابن القارح بعيداً عن سياق التواصل، فلابد أن يكون مقصد المعري متخفياً خلف الدلالة الحرفية لكلماته، وليصل إليه المتلقي عليه أولاً أن يكون ملتزماً بمبدأ التعاون، فإذا

انتهك المتكلم مبدأً من مبادئ الحوار سيدرك المتلقي اليقظ ذلك، وسيسعى إلى الوصول إلى هدف المتكلم من هذا الانتهاك[٢٧].

وفي قول المعري انتهاكٌ لمبدأ المناسبة إذ إن السياق لا يتناسب مع ذكر الحيات والأفاعي، لكن المعري يعلم أن ابن القارح قادرٌ على استنتاج المعنى المستلزم، كونه عارفاً بالدلالات المجازية للعبارات، ولاسيما أن انتهاك مبادئ الحوار لا يقتصر على التعبير الحقيقي، بل يشتمل التعبير المجازي أيضاً، فهو متحققٌ في كل مفارقةٍ يراد بها عكس ما يقال، أو غير ما هو متوقعٌ[٢٨].

فالمعنى المستلزم من قول المعري أنه يحمل بين أضلاعه قلباً يمور ويخفق بحبّ ابن القارح، وقد عزز المعري هذا الاستلزام في قوله: «وقد علم -أدام الله جمال البراعة بسلامته- أن الحضب ضربٌ من الحيّات، وأنه يقال لحبّة[٢٩]* القلب حضبٌ"[٣٠]، إذ أضاف جملةً أكدت المعنى المستلزم، وعززته بصورةٍ صريحةٍ، وقد تمكن المعري من تعزيز الاستلزام الحواري المضمر في كلامه بفضل قابلية الاستلزام الحواري للتأكيد؛ إذ إن خاصية التعزيز والتوكيد من خصائص الاستلزام[٣١].

ومن أمثلة الاستلزام الحواري في الرسالة استعمال المعري الكناية في حوارٍ أجراه بين (ابن القارح) و(عدي بن زيد) الذي كان مولعاً بالصيد في الحياة الدنيا، فيقول: «فهل لك أن نركب فرسين من خيلِ الجنة فنبعثهما على صيرانها*، وخيطان نعامها. وأسراب ظبائها. وعانات حمرها[٣٢]».

فالدلالة الحرفية للعبارة السابقة تخالف مبدأ الأسلوب أو الكيف من حيث إنها تتسّم بالغموض، والمتلقي للعبارة يسأل نفسه: ما الغاية من إرسال الخيول على قطيع بقرٍ وحشيٍّ، وجماعة نعامٍ، وسرب ظباءٍ، وماذا

ستفعل الخيول بهذه القطعان؟

لكن سياق الحوار يحدد المعنى المضمر بطريقة الاستلزام الحواري في هذا القول؛ لأن المتكلم لا يبني كلامه بمعزلٍ عن السياق المحيط به، وما يدور فيه من الظروف والملابسات بصورةٍ عامةٍ، وعن المخاطب بصورةٍ خاصةٍ؛ إذ لن يتسنى فهم وتأويل التعابير والأقوال إلا بوضعها في سياقها التواصلي زماناً ومكاناً ومقاماً ومشاركين[٣٣]، والسياق هنا حديثٌ في القنص والصيد، وشدة وَلَهِ عدي بن زيد به، وإنشاده الشعر في وصف رحلات صيده، فالمتلقي من خلال إدراكه للسياق الذي يدور فيه الحوار سينتقل من الدلالة الحرفية للعبارة إلى المعنى المستلزم منها، ويدرك أن دعوة عدي بن زيد لابن القارح هي دعوةٌ للخروج إلى الصيد، وليست لإرسال الخيول وراء القطعان حرفياً.

فعلى الرغم من مخالفة العبارة مبدأ الأسلوب من مبادئ الحوار إلا أن المعري يعلم وجود قرينة السياق التي تساعد المتلقي على فهم المعنى المقصود من عبارته، «إذ ينبغي على المتكلم عند القيام بالتعبير عن معانيه ألا يبلغ حدّ الالتباس والغموض على مخاطبه؛ لئلا يفقد الحدث الكلامي فائدته»[٣٤]، ولكي يزيل المعري أي غموضٍ يمكن أن يلتبس به المتلقي عزز معناه المضمر بقوله: «فإن للقنيص لذةً قد تنغّضتُ لك بها"[٣٥] إذ يعيد المتلقي إلى سياق التحاور ليبعد ما يمكن أن يشوش عملية الفهم، والوصول إلى المعنى المضمر المقصود.

كما يحمل ردّ ابن القارح استلزاماً حوارياً إذ يقول: «إنما أنا صاحب قلمٍ وسلَمٍ، ولم أكن صاحب خيلٍ، ولا ممّن يسحَب طويل الذيل، وزرتك إلى منزلك مهنئاً بسلامتك من الجحيم، وتنعمك بعفو الرحيم"[٣٦]، فالمعري على لسان ابن القارح لا يصرح بمعانيه

المقصودة مباشرةً، وإنما يعتمد على الاستلزام الحواري الذي سيتوصل إليه المتلقي من خلال عملياتٍ استنتاجيةٍ يستدلّ من خلالها على المعنى اللازم للدلالة الحرفية لعبارته، فهنا نتساءل كيف يكون جواب ابن القارح رداً على دعوة عدي بن زيد للخروج للصيد في جنة الغفران؟

إن قول ابن القارح إنه صاحب قلمٍ وسلمٍ، وليس فارساً، وأن غايته من زيارة عدي بن زيد في جنة الغفران هي التهنئة يستلزم معنىً مضمراً مفاده أنه يريد إبلاغ متلقيه بأنه ليس رجل صيدٍ، وليس له باعٌ في قنص الطرائد، فهو يرفض دعوته، لكن من دون أن يستخدم التعبير المباشر، وإنما يعتمد على التزام متلقيه بمبدأ التعاون للوصول إلى مقصده المضمر، فمبدأ التعاون هو الركيزة التي يرتكز عليها المتكلم للتعبير عن قصده، مع ضمانه قدرة المتلقي تأويله وفهمه[٣٧]، إذ إن التزام المتخاطبين بمبدأ التعاون وبقواعده الثانوية يعد سبيلاً يكفل تبليغ المقاصد، وعند الخروج عن إحدى تلك القواعد يحدث اختلالٌ في العملية التواصلية، وفي هذه الحال ينبغي على المتلقي أن ينقل كلام المتكلم من معناه الظاهر إلى المعنى الخفي الذي يقتضيه المقام، كما ينبغي على المتكلم أن يتأكد من تمكن متلقيه من الوصول إلى مقصده، ولولا مبدأ التعاون لما تمّ تبادل المقاصد بين المتخاطبين، ولذلك عدّ غرايس المقاصد مراتباً؛ أي إن القصد مركبٌ وانعكاسيٌّ يتمثّل في سعي المتكلم إبلاغ المخاطب أمراً بجعله يتعرّف على مقصده، وفي استخدام المخاطب آلياتٍ تأويليةً لإدراك مدلول خطاب المتكلم ومقاصده[٣٨].

وفي أثناء سير ابن القارح في الجنة يلتقي بشابين فيسألهما: «من أنتما رَحِمكما الله وقد فعَل؟ فيقولان: نحن النابِغَتان «نابغةُ بني جَعدَة» «ونابغةُ

بني ذُبيان». فيقولُ _ ثبَّتَ الله وطأتَه _: أمّا «نابغةُ بني جَعدَة» فقد استوجب ما هو فيه بالحنيفيّة، وأمّا أنت يا «أبا أُمامة» فما أدرى ما هيَّانك؟ -أي ما جهَتُك- فيقول «الذّبيانيُّ»: إني كنتُ مقراً بالله، وحججتُ البيت في الجاهليّة"[٣٩].

يُسهب المعري في نصه عند حديثه عمّن التقى بهما ابن القارح من الشعراء الأفاضل، وهم ينعمون في الجنة، وإسهابه في الحديث عنهما، وذكر أشعارهما شكل من أشكال خرق مبدأ التعاون في الكلام، فالمتلقي يبحث عن المعنى الضمني من ورود هذا الحوار الذي يدور أمامه، ويدأب باحثاً من خلال السياق اللغوي عن المقاصد الكامنة في الحوار؛ لأن المرسل يعتمد على خصائص السياق ليقيد الطاقة التأويلية لدى المتلقي، فلا يتمكن المتلقي من تحديد تأويلٍ مناسبٍ إلا عبر اعتبار السياق الخارجي والكلي للنص، وما تقدم سابقاً، أو بتعبير ليفيس ((الخطاب السابق))[٤٠]، فالإصرار على ذكر الشعراء، وتبشير بعضهم بالجنة دلالةٌ على فعلهم الحسن وقولهم الطيب، وتجنبهم الشر والأذى، أو الكفر والخروج عن طاعة الله وعن كل ما يغضبه يستدرج المتلقي إلى حسن الكلام، والالتزام بالخلق والمنزلة الرفيعة بين الناس، وعدم الضياع في الدنيا وملذاتها، أو الانغماس في قول الشعر، وسبك الأوزان بعيداً عن الإيمان بالله وبيوم الجزاء.

ويتابع قصّ ما يراه في رحلة ابن القارح السماوية، فيقول: «ويمرُّ رفٌّ من إوزِّ الجنَّة، فلا يلبثُ أن ينزلَ على تلك الرّوضةِ ويقفَ وقوفَ مُنتظرٍ لأمرٍ- ومن شأن طير الجنّة أن يتكلّمَ- فيقولُ: ما شأنُكنَّ؟ فيقُلن: أُلهِمْنا أن نسقطَ في هذه الرّوضة فنغنّيَ لمنْ فيها من شَرْبٍ. فيقول: على بركة الله القدير. فينتفِضْن، فيصِرْن جواريَ كواعبَ يرفُلنَ في وشي الجنّة، وبأيديهنّ المزاهرُ وأنواعُ ما

يُلتمس به الملاهي. فيعجبُ وحُقّ له العجبُ وليس ذلك ببديعٍ من قدرة الله جلّت عظمتُهُ وعزّت كلمتهُ وسبغت على العالم نعمتُهُ ووسِعت كلَّ شيء رحمتُهُ ووقعت بالكافر نقمته»[٤١].

هنا يروي للمتلقي قصةً متخيلةً عن سرب إوزٍ هبط بإلهامٍ إلهيٍّ في الجنة وإذا به يتحوّل إلى جارياتٍ صغيراتٍ يُثرن الإعجاب فيُعظّم من قدرة الله على هذا الخلق ويضع المتلقي أمام قصة تثير الأسئلة في ذهنه فما المعنى الضمني الذي يكمن فيما رأى؟ وما الغاية من خرق مبدأ التعاون عند استطراده ورويه للقصص تلك؟

إن السياق اللغوي للنص يقود المتلقي إلى التفكير في نعيم الجنة المتمثّل في الجواري الحسناوات اللواتي يجلبن معهن متاع الجنة ولهوها المُتمنى؛ إذ إنّ المتلقي يسعى دائماً إلى إيجاد الروابط المفقودة التي تمثّل نوعاً من العلاقة العامة الصادقة بين جمل النص ومعانيه فالإوزات تحولن بقدرة من الله إلى خير ما يسرّ القلب فتثير الصورة المتخيّلة ذهنَ المتلقي وتجذبه وتقوده إلى متاع الجنة الدائم وتُنسيه متاع الدنيا الزائل الذي يعوزه النقص والإعجاز الماثل في الآخرة، فيستأثر المتلقي بكلامه ويدفعه إلى الترفع عن ملذات الدنيا وشهواتها طمعاً بنعيم الآخرة المنتظر، فما إدراك بالآخرة وحسن عواقبها وملذاتها إلا بالترفّع عن شهوات الأرض ومتاعها، فإن أدرك المتلقي المعنى الضمني وراء هذه المشاهدة المروية فسيكون المعري قد أدرك غايته من استطراده.

ويستمر المعري في روي قصص الجنة المتخيّلة في رحلة ابن القارح فيقول: «ويخطرُ له الفقّاع الذي كان يُعمل في الدار الخادعة فيُجري الله بقدرته أنهاراً من فقّاع الجرعةُ منها لو عُدلتْ بلذّات الفانية منذُ خلق الله السمواتِ والأرضَ إلى يوم تُطوى الأممُ الآخرة لكانت أفضل وأشفّ.

فيقول في نفسه: قد علمتُ أنّ الله قديرٌ والذي أُريدُ نحوُ ما كنت أراه مع الطّوافين في الدار الذاهبة»[٤٢].

في هذا الشاهد نقف أمام خروجٍ جديدٍ عن سياق الحوار بين المتكلم والمتلقي فالحديث عن اشتهاء الفقاع في الجنة، وهو نوعٌ من أنواع شراب الشعير يستدعي إثارة الدهشة والتساؤل كيف يستوي ذكر هذا المشروب أو اشتهاؤه في أثناء السير في الجنة؟ وهنا يكمن سبب الخروج عن مبدأ التعاون الحوار، وما على متلقي الخطاب إلّا اللجوء إلى عمليات القياس ليصل إلى المعنى المستلزم، وهنا عليه أن يصل إلى عملية التفريق، وهي العملية التي استخرج بها القائل مختلف الجوانب والوجوه التي يظهر بها أي موضوعٍ من موضوعات قوله[٤٣]، فالمتكلم يقود المتلقي، ويعده بتحقيق رغباته وشهواته فالله يلبي له ما يشاء ويُجري له نهراً من الشراب جرعةٌ واحدةٌ تعادل ما يفوق الوصف، وما هذا الخيال إلّا من وعد الله وخرق مبدأ التصديق هو المطلوب في السياق اللغوي السابق، ومنه قوله: «ويعبر بين تلك الأكراس - أي الجماعات- طاووس من طوواويس الجنة يروق من رآه حسناً، فيشتهيه «أبو عبيدة» مصوصاً، فيتكون كذلك في صفحة من الذهب. فإذا قضي من الوطر، انضمت عظامه بعضها إلى بعض، ثم تصير طاووساً كما بدأ. فتقول الجماعة: سبحان من يحيي العظام وهي رميم!»[٤٤]. فتراه يقود شواهد أخرى عن قصصٍ من محض الخيال متجاوزاً مجدداً مبدأ الصدق في الحوار والتزام المنطق في الكلام لكن هذا الخيال لا يقود المتلقي إلى المعنى الضمني فيعزز الحوار، ويغنيه، ويسهّم في فهم المتلقي لغرض المتكلم من دون مباشرةٍ في الكلام.

إن مبدأ التعاون في الحوار يقوم

في ركنٍ من أركانه على مبدأ التصديق، أي عليك أن تنتبه إلى قصدك في كل قولٍ، وأن تكون صادقاً في كلامك[٤٥]، غير أن ما عرضه المعري في كلامه ينأى عن صدق القول، ويسوق الحوار بعيداً عن مبدأ التصديق، فنعيم الجنة وما ينتظر المؤمن من وعد الله قائم على قصصٍ وتصوراتٍ وأحداثٍ وشخصياتٍ بناها المعري من محض خياله وهي خارجةٌ عن قصص الجنة فتراه بذلك يدفع المتلقي تداولياً للبحث عن المقاصد غير المصرح بها في الأقوال، ويقود المتلقي إلى النظر في الظروف السياقية التي تحفّ الكلام وتجعله أبعد عن الفهم المباشر للوصول إلى المقاصد بطريقةٍ غير مباشرةٍ وبذلك يندفع المتلقي إليها بنفسه ويصل إلى مقاصد المتكلم من خلال اجتهاده.

وفي مسير الجنة يقول المعري مجدداً: «يقول المَلَكُ: خذ ثمرةً من هذا الثمرِ فاكسِرها فإنّ هذا الشجر يُعرفُ بشجرِ الحور. فيأخذُ سفرجلةً أو رمانةً أو تفاحةً أو ما شاء الله من الثمار فيكسِرُها فتخرجُ منها جاريةٌ حوراءُ عيناءُ تبرقُ لحُسنها حوريّاتُ الجنان"[٤٦]. فالكلام لم ينتهِ عند جزاءٍ حسنٍ بعينه بل يستفيض بذكر الحسنات فيقود المتلقي من خلال السياق إلى مقامٍ جديدٍ ويدفعه إلى تأمل الخيال المنساق في هذه القصة فالمؤمن ما إن يشتهي طعاماً يجني قطافه من شجرة يتحوّل ثمرها إلى حوريةٍ حسناء بهية المنظر وهي متاحةٌ في أي وقتٍ برضّا الله فيسأل المتلقي نفسه عن المعنى الضمني فيها وعن الوسيلة التي تقوده من نعيم دنيا المعاش إلى ذلك النعيم في دار المعاد إذ إن جزاء المؤمن وثوابه لا يُنال إلّا من خير أعماله في الدنيا والترفّع عن هذه الملذات التي لا تُضاهى بملذات الآخرة الدائمة.

وفي قول المعري: «ولو أني لا أشعر بما يقال فيّ، لأُرِحت من إنكاري

وتلافي، وكنت كالوثن: سواءٌ عليه إن وُقِّر من الوقار، وإن أوقر من الأوقار؛ وكالأرض السبخة: ما تحفل أن قيل: هي مريعةٌ، أو قيل لها بئست الزريعة؛ وكالفرير المعتبط: ما يأبه لقول الآكل: إنه لَساحٌ، ولا إذا قُصِبَ إنه بالدكة شاح"[٤٧]، نجد استلزاماً حوارياً.

فالمتلقي يسعى للبحث بين الدلالة الحرفية للخطاب السابق للوصول إلى المعنى الذي يقصده المعري، والقرينة التي تصرف ذهن المتلقي عن الاكتفاء بالدلالة الحرفية هي (كـ) التشبيه في قوله: (كالوثن، وكالأرض، وكالفرير المعتبط)، فالسياق لا يتناسب مع تشبيه المعري نفسه بالوثن أو بالأرض أو بالفرير المعتبط المتمثّل بولد الماعز، وهنا خالف المعري قاعدة الصلة أو المناسبة منتجاً ما يسمى انزياح المناسبة إذ عدل عن قول ما يناسب الحوار، مستلزماً معنىً غير مباشرٍ يكمن فيه مقصوده، ويفهم من السياق[٤٨]، وعلى المتلقي أن يخطو عدة خطواتٍ استنتاجيةٍ ليصل إلى المعنى المضمر الذي يقصده المعري، وهنا تظهر مقدرته التداولية.

فعلى المتلقي أن يسأل ما الذي يدفع المعري إلى تشبيه نفسه بهذه التشبيهات؟ وما هي أوجه الشبه بين المعري وهذه المشبهات بها؟ ومن خلال الاستدلال يصل المتلقي إلى أن قصد المعري تصوير حالة اللامبالاة التي سيعيشها لو أنه لم يعلم بما يقول ابن القارح فيه إذ إن بينه وبين الوثن الذي لا يبالي إن وقّر أو أوقر، وبينه وبين الأرض التي لا تحفل بوصفها خصبةً أو قاحلةً، وبينه وبين الفرير المعتبط الذي لا يأبه بوصفه من قبل آكله بأنه مدهنٌ سائغ الطعم أو بخيل اللحم والشحم شبهٌ مشتركٌ في حالة عدم الاهتمام والاكتراث؛ لأن هذا الشبه مستلزمٌ عن الدلالة الحرفية للخطاب.

ويستلزم عن حالة اللامبالاة التي يقصدها المعري استلزاماً حوارياً يتجلّى في رفض المعري ما يصفّه به ابن القارح، ورغبته بعدول ابن القارح عما قاله فيه، والمتلقي يصل إلى هذا الاستلزام من خلال مقتضى السياق والمقام اللذين تجري فيهما العملية التواصلية، فالمتلقي يلجأ إلى القيود السياقية والمقتضيات والمبادئ الخطابية لاستخلاص الاستلزامات التي تخدم الفائدة الإخبارية، وتحقق الغرض التواصلي[٤٩].

الهوامش:

١- المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب «دراسة معجمية»: ١٤، وينظر: أصول الحوار وتجديد الكلام: ٩٩.

٢- ينظر: الأبعاد التداولية عند السهيلي: ٢١١.

٣- المنطق والمحادثة: ٦١٢.

٤- ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٣٧-٢٥٣.

٥- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٢.

٦- في التداوليات الاستدلالية قراءة تأصيلية في المفاهيم والسيرورات التأويلية: ٢٩٢.

٧- ينظر: نظرية التلويح الحواري: ٢٨.

٨- ينظر: التداولية النشأة والتطور: ١٣.

٩- ينظر: التداولية عند العلماء العرب: ٣٣.

١٠- ينظر: المنطق والمحادثة بحث منشور ضمن كتاب اطلالات على النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين: ٢/ ٦١٢، وينظر: القاموس الموسوعي للتداولية: ٢٢.

١١- ينظر: التداولية: ٧١.

١٢- ينظر: نظرية التلويح الحواري: ٢٨.

١٣- ينظر: محاضرات في علم اللغة: ٨.

١٤- الاستلزام الحواري من لغة المنطق إلى المنطق اللغوي: ٢٣٠٧.

١٥- ينظر: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٩٧.

١٦- ينظر: التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٥٥.

١٧- نظرية التلويح الحواري: ٣١.

١٨- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٩٦.

١٩- نظرية التلويح الحواري: ٢٩.

٢٠- ينظر: نظرية التلويح الحواري: ٢٩-٣٠، وينظر: التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٥٥-٥٦، وينظر النظرية البراغماتية اللسانية التداولية: ٩٠-٩١، وينظر آفاق جديدة في الدرس اللغوي المعاصر: ٣٣.

٢١- لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب: ١٧٣.

٢٢- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٥.

٢٣- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٦-٣٧.

٢٤- ينظر: نظرية التلويح الحواري: ٣١.

٢٥- ينظر: نظرية التلويح الحواري: ٣٣-٣٤.

*الشذاة: الشدة، رسالة الغفران: ١٣١ الهامش.

*الشقاب: جمع شقب- مهواة بين جبلين، وقيل هو كالغار أو الشق في الجبل، رسالة الغفران: ١٣١ الهامش

٢٦- رسالة الغفران: ١٢٩-١٣١.

٢٧- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٦.

٢٨- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٨.

٢٩- * وردت في إحدى النسخ (لمحبة القلب).

٣٠- رسالة الغفران: ١٣٢.

٣١- ينظر: نظرية التلويح الحواري: ٤٣.

*صيرانها: قطيع البقر، رسالة الغفران: ١٩٥ الهامش.

٣٢- رسالة الغفران: ١٩٥.

٣٣- ينظر: لسانيات النص: ٤٨-٤٩.

٣٤- البعد التداولي عند ابن جني -الاستلزام التخاطبي أنموذجاً: ١٩.

٣٥- رسالة الغفران: ١٩٥.

٣٦- رسالة الغفران: ١٩٥.

٣٧- ينظر: إستراتجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٩٦.

٣٨- ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني: ١٠٠-١٠١.

٣٩- رسالة الغفران: ٢٠١-٢٠٢.

٤٠- ينظر: لسانيات النص: ٥٦.

٤١- رسالة الغفران: ٢١٢.

٤٢- رسالة الغفران: ٢٨٠.

٤٣- ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٨٠.

٤٤- رسالة الغفران: ٢٨١.

٤٥- ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٥٠.

٤٦- رسالة الغفران: ٢٨٩.

٤٧- رسالة الغفران: ٣٩١.

٤٨- ينظر: جماليات الاستلزام الحواري في القرآن الكريم دراسة أسلوبية تداولية: ٢٢٦.

٤٩- ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٩٠.

المصادر والمراجع:

١-آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د.محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية-مصر، ٢٠٠٢.

٢-القاموس الموسوعي للتداولية، آن ريبول وجاك موشلر، تر: مجموعة من الأساتذة والباحثين، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، د.ط، ٢٠١٠.

٣- إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٤.

٤-التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة <الأفعال الكلامية> في التراث اللساني العربي)، د.مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٥.

٥- لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ذهبية حمو الحاج، دار الأمل للطباعة، ردمك، د.ط، ١٩٨٨.

٦-النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، د.محمود عكاشة، مكتبة الآداب، القاهرة-مصر، ط١، ٢٠١٣.

٧-الأبعاد التداولية عند السهيلي (ت ٥٨١هـ)، أحمد محسن خلف، أطروحة دكتوراه، كلية التربية، قسم اللغة العربية، الجامعة المستنصرية، جمهورية العراق، ٢٠٢١.

الاستلزام الحواري في التداول اللساني.

٨- من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، العياشي أدراوي، دار الأمان، المغرب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١١.

٩-البعد التداولي عند ابن جني -الاستلزام التخاطبي أنموذجاً، أم.د.فليح خضير شني، لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، ع٢٥، ٢٠١٧.

١٠- التداولية النشأة والتطور، هديل حسن عباس حسن، إشراف: أ.د.أحمد عاشور جعاز، جامعة بغداد، كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، ٢٠١٧.

١١- التداولية، جورج يول، تر: د.قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت-لبنان، دار الأمان، الرباط-المغرب العربي، ط١، ٢٠١٠.

١٢- جماليات الاستلزام الحواري في القرآن الكريم دراسة أسلوبية

تداولية، عبد المنعم عبد الله عبد المنعم محمود السيوطي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة عين شمس،القاهرة-مصر،٢٠٢٠.

١٣-اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د.طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب العربي، ط١، ١٩٩٨.

١٤- لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، د.محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٩١.

١٥-محاضرات في فلسفة اللغة، د.عادل فاخوري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠١٣.

١٦-المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب (داسة معجمية)، د.نعمان بوقرة، عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العالمي، عمان-الأردن، ط١، ٢٠٠٩.

١٧-نظرية التلويح الحواري بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الإسلامي، هشام عبد الله الخليفة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت-لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان-مصر، ط١، ٢٠١٣.

١٨-في التداوليّات الاستدلاليّة قراءة تأصيلية في المفاهيم والسيرورات التأويليّة، د. ثروت مرسي، دار كنوز المعرفة، عمان - الاردن، ط١، ٢٠١٨ .

١٩-إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين ترجمة مجموعة من الاساتذة والباحثين، إشراف وتنسيق عز الدين مجذوب، بيت الحكمة - تونس، ٢٠١٢.٥- الحواري من لغة المنطق إلى المنطق اللغوي، محمد قويدر الرحمن ، مجلة المدونة، المجلد ٨، العدد ٣، الجزائر، ٢٠٢١.

٢٠-التداولية اليوم علم جديد للتواصل، آن روبول وجاك موشلار، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة د.لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٣, ٤.

٢١-الاستلزام الحواري من لغة المنطق إلى المنطق اللغوي، محمد قويدر، مجلة المدونة، المجلد ٨، العدد٣، الجزائر، ٢٠٢١.